

بنية الحكاية الصوتية في الخطاب القرآني: سورة الرحمن نموذجاً

فافة هاجر

The structure of the voice story in the Qur'anic discours Al-Rahman model

Fafa Hadjer

جامعة محمد الصديق بن يحيى - جيجل (الجزائر)

f.hadjer51@yahoo.com

ملخص:

إن صوتية اللغة التي تختلف في طبيعتها الرمزية عن باقي الرموز غير اللغوية أحاطها بكثير من البحث، فكان الصوت مادتها الخام على اعتباره وحدة متميزة، خاصة إذا كان هذا الصوت قرآنياً، فقد عمل الخطاب القرآني على إذكاء حرارة الكلمة وتعجيز العرب في أكثر ما برعوا فيه، واعتمد تشكيلاً خاصاً كشف مدى التناسق الفني والانسجام الدلالي عن طريق الصوت الحكائي الذي اتخذ أشكالاً متنوعة جمعت بين براعة التشكيل اللغوي وجمال الجرس الإيقاعي فكان ذلك ضرباً من الإعجاز القرآني خاصة في سورة الرحمن.

الكلمات المفتاحية: الصوت، الحكاية الصوتية، الدلالة، الخطاب القرآني، سورة الرحمن.

Abstract:

The voice of the language, which differs in its symbolic nature from the non-linguistic symbols, was surrounded by much research. The sound of its raw material was considered to be a distinct unit, especially if it was a koranic voice. The Qur'anic sermon worked to increase the heat of the word, Especially revealing the extent of artistic consistency and semantic harmony through the sound of the textual, which took various forms that combined the skill of linguistic composition and the beauty of the rhythmic bell was a piece of Quranic miracles, especially in Surat Rahman.

Keywords: The sound, The voice story, Significance, Quranic discourse, Surah Rahman.

لطالما كان الصوت عماد الدرس الصوتي عند القدامى والمحدثين على حد سواء، ولا ريب أن كان الخطاب القرآني منبع هذا الاهتمام بأصوات اللغة، حيث يظل في كل سورة من سوره يتخذ وضعاً لغوياً خاصاً، يتمثل في إمداد الكلمة بمادتها وصيغتها الملائمة لها، فينتقي من الأصوات ما يتلاءم مع الجو النفسي للمخاطب، ويتوافق والمعيار الدلالي العام، بشكل يسهم في تجسيم الأحداث والمشاهد التي يعرضها؛ بغية تصوير المعنى بأدق تفصيلاته، وتحقيق إيقاعية موسيقية تطرب لوقعها أذن السامع، ولا نجانب الصواب إذا ما قلنا أن تجليات المعنى وإيحاءاته التي تطرق الذهن بفضل الطاقات التي يختزنها صوت الحرف لا يكون إلا في لغة مثل اللغة العربية، التي اختارها الله جل جلاله لغة للقرآن، لغة لتبليغ الرسالة، والتي حباها بنوع من الخفة والرشاقة، والدقة جعلتها تكتسب قدرة هائلة على التصوير والإبداع؛ لاستيعابها أرقى الصور الفنية، وتلونها بألوان فريدة من النظم النغمي الذي يساهم في إبراز جمالية التشكيل الصوتي، واستنباط مكامن التناسق الإيقاعي.

فلا غرو إذن أن يشبه بعض الدارسين اللفظة القرآنية بالكائن الحي، التي تستمد هويتها وجمالها من الأصوات التي تتكون منها، ومن السياق الذي ترد فيه، حيث ينتقي الخطاب القرآني من الأصوات ما يتناسب ومقتضى الحال، فاختار الصوت القوي للمعنى القوي، واللين للمعنى الرقيق السلس، فهو (الصوت) لوحده قادر على رسم وتصوير المواقف المتعددة؛ لأنه يحمل بين جنباته دلالة في نفسه تجعله يصور المعنى بجرسه، ويحاكيه بظله.

أولاً: تعريف الحكاية الصوتية:

ولا يمكننا تعريفها إلا بعد الحديث عن مفهوم الصوت من الناحية الاصطلاحية، متجاوزين التعريف اللغوي إذ تجمع المعاجم التي استقينها منها المادة اللغوية للصوت على غرار "معجم العين" و"سر صناعة الأعراب" و"لسان العرب" على أنه ذلك الوقع الصادر عن أي كان، وقد أعطوه خاصية التعميم، فلم يخصصوه في شيء بعينه، بل جعلوه وصفاً مطلقاً لكل ما يصدر عن الإنسان، والحيوان، وكذا الأشياء، وكل مظاهر الطبيعة.

أما اصطلاحاً فمختلف فيه، تبعاً لاختلاف زوايا النظر، واختلاف تخصصات الباحثين، فهو من الناحية الفيزيائية: «اهتزازات ميكانيكية في أي وسط مادي (غازي، سائل، صلب) ... الصوت سلسلة متابعات سريعة من التضاضعات والتخلخلات المتتالية في الهواء (...)، والصوت هو الطاقة التي

تصل الأذن من الخارج»⁽¹⁾، وقد وافق جماعة من اللغويين هذا التعريف وعلى رأسهم "إبراهيم أنيس" الذي عرفه على أساس أنه ظاهرة فيزيائية فيقول: «... كل صوت مسموع يستلزم وجود جسم يهتز، على أن تلك الهزات قد لا تدرك بالعين في بعض الحالات (...) وهزات مصدر الصوت تنتقل في وسط غازي، أو سائل، أو صلب حتى يصل إلى الأذن الإنسانية»⁽²⁾.

وهو في عرف علماء النفس ظاهرة فيزيولوجية نفسية وتعريفاتهم للصوت لا تناقض تعريفات سابقهم من أرباب الدراسات الفيزيائية، فالصوت عندهم: «خبرة حسية في الدماغ تنتقل إليه عبر الأعصاب السمعية للأذن (...) الصوت هو الإحساس السمعي، أي السمع»⁽³⁾.

وهكذا فإن التخصصات العلمية هي المحتكم إليها في العملية التعريفية، ولا يمكننا الحكم على تعريف بأنه جامع شامل، كاف واف، إلا بالرجوع إلى المنطلق الأولي الذي على أساسه يعول عليه في تحديد الطبيعة المفهومية للمصطلح، وهذه المفاهيم وإن اختلفت فإنها تكمل بعضها البعض، وقد أجاد الدكتور "محمد الصغير" في إعطاء الصوت مفهوماً يجمع بين الفيزيائي والنفسي قائلاً أن: «الصوت اهتزازات محسوسة في موجات الهواء تنطلق من الصوت، وتذبذب من مصانعه المصدرة له، فتسبح في الفضاء حتى نثلاشي، ويستقر الجزء الأكبر منها في السمع بحسب درجة تذبذبها، فتوحي بدلائلها فرحاً أو حزناً، نهياً أو أمراً، خبراً أو إنشاءً، صدى أو موسيقى، أو شيئاً عادياً مما يفسره التشابك العصبي في الدماغ أو يترجمه الحس المتوافر في أجهزة المخ بكل دقائقها»⁽⁴⁾.

وينقسم الصوت إلى قسمين: لغوي، وغير لغوي، فالأول دال والثاني غير دال، وكلاهما مظهر من مظاهر الصوت الطبيعية، وعلى هذا الأساس لا يمكننا اعتبار كل أصوات الإنسان أصواتاً دالة ذات معنى، ونجد من الدارسين من يذهبون إلى القول بموسيقية الصوت اللغوي، جاعلين وصفه مطابقاً للصوائت فقالوا: «الصوت الموسيقي صوت ذو ذبذبات منتظمة يتكون من نغمة واحدة نقية، أو عدة نغمات متوافقة معاً، وينطبق هذا الوصف على الصوائت بصفة عامة»⁽⁵⁾، فربطوا بين الأصوات وأجراسها الحاملة لنغمة أو نغمات ميزتها التلاؤم والتناسب مع بعضها البعض داخل التركيب، وهي على قدر كبير من التماسك والتعاضد، الشيء الذي يحقق لها الجمال الموسيقي فلا تجدها قلقة منفرة.

وبما أن علم الأصوات يستثني كل ما ليس بلغوي، فإننا هنا معنيون بدراسة هذا الشق، لأن الموضوع المطلق لهذا العلم، ولهذا الدراسة هو الصوت الدال بجانيبه العضوي والصوتي والناجئ طبعاً عن

الجهاز النطقي البشري، ولتحكم بلغوية الصوت لابد من توفر مجموعة من الخصائص انعدامها يؤدي بالضرورة إلى غياب دلالاته من بينها: (6)

- صدوره عن جملة من أعضاء الجسم الإنساني، وعلى هذا لا يعد التصنيف أو صوت إطلاق الرصاص صوتاً لغوياً.
- يجب أن يصدر الصوت نتاج إرادة إنسانية، فلا الهذيان صوت، ولا صوت المحموم صوتاً لغوياً؛ لانتفاء الإرادة في إصداره.
- أن يكون صادراً بطريقة آلية معينة تتحدد باندفاع الهواء من الداخل إلى الخارج؛ لأن هناك أصواتاً تصدرها أعضاء النطق الطبيعية باندفاع الهواء في الاتجاه العكسي؛ أي من الخارج إلى الداخل.

ومعروف عن لفظ الحكاية في هذا الشأن أنه أخذ معنى المشابهة والمماثلة، ومنه فالحكاية الصوتية المعنية بالصوت اللغوي الدال؛ يقصد بها "الدلالة الصوتية"، أو "المناسبة الصوتية"، ويصطلح على تسميتها في علم اللغة الحديث بـ: "القيمة الدلالية للصوت"، وهي مجموعة مصطلحات تطلق على الجانب الذي يعكس ترابط العلاقة بين أصوات العربية ومعانيها؛ بيد أن دراسة أصوات اللغة هي الخطوة الأولى لإدراك المعاني، والدلالة هي ما تؤديه الأصوات المكونة للفظ من وظائف تسهم في تمثيل المعنى من خلالها، حتى أننا لنجد في الحركات والتكرارات هي الأخرى دلالات صوتية معينة، فهذه هي الحكاية الصوتية في أبسط معانيها، في تمثل الأصوات للدلالة التي سيقى لأجلها، وإنها لواحدة من أهم الميزات والخصائص الكامنة في اللغة العربية، والتي نستشفها في أصواتها وحروفها دون غيرها من اللغات، وفي دلالاتها ومعانيها، إنها اللغة الشاعرة «لغة بنيت على نسق الشعر في أصوله الفنية والموسيقية، فهي في جملتها فن منظوم منسق الأوزان والأصوات لا تنفصل عن الشعر في كلام تألفت منه، ولو لم يكن من كلام الشعراء» (7).

ويعد "ابن جني" من الأوائل الذين تفتنوا لتلك العلاقة الموجودة بين الأصوات ومدلولاتها، فكان أكثر لغويي العربية تحملاً لإبراز والتماس تلك الصلة خاصة في حديثه عن أصل اللغة وربطه بصوت الشيء ومصدره ويضرب لنا في ذلك مثلاً قائلاً: «... وكذلك قالوا: صرَّ الجندب، فكرروا الراء لما هناك من استطالة صوته، وقالوا: صرَّ البازي لما هناك من تقطيع صوته» (8)، فلما كان صوت الجندب مستطيلاً اقتضى التعبير وضع صوت موأى لصوته، ولم تكن غير الراء بما تحمله من صفات التكرير والتردد والاستطالة الصوت الأنسب لذلك.

أما صوت البازي فلها جاء على هيئة متقطعة غير مضطردة تطلب قطع الراء فأثينا على صرصر، لتكون هذه الأسماء مستوحاة من جنس ذلك التردد الصوتي، فجاءت أصواتها معبرة عن ذلك الوقع الصادر عنها، وكانت دلالتها مستوحاة من محاكاتها لمصدر تلك الأصوات، وقد نقل أيضا عن "ابن جني" قوله أن: «كثيرا من هذه اللغة وجدته مضاهيا بأجراس حروفه أصوات الأفعال التي عبر بها عنها، ألا تراههم قالوا: قضم في اليابس، وخضم في الرطب، وذلك لقوة القاف وضعف الخاء، فجعلوا الصوت الأقوى للفعل الأقوى، والصوت الأضعف للفعل الأضعف»⁽⁹⁾.

وفي نهاية حديثنا عن هذا الباب نقول أن الحكاية الصوتية كانت طبيعية في بداية نشأتها؛ فيما تؤديه الأصوات الصادرة من مظاهر الطبيعة المختلفة، كصوت الريح، الشجر، والحيوان... وغيرها، حيث نجد لها ذات علاقة وطيدة بالمحاكاة الطبيعية في نشأة اللغة، ليقودنا الكلام إلى القول أن المحاكاة ذات وجهين، الأول طبيعي ويسمى "محاكاة أو دلالة طبيعية"، أما الثاني فلغوي بحت وهو "دلالة الأصوات والفونيمات التركيبية" ممثلة في الصوائت والصوامت، و"غير تركيبية" يمثلها التنغيم، والنبر... وغيرها من الأداءات الصوتية.

ثانيا: التعريف بسورة الرحمن:

هي سورة مختلف فيها أمكية هي أم مدنية؟ لكن أكثر أهل العقيدة ذهبوا إلى القول بمكيته، وهذا ما أشار إليه "السيوطي" حين قال: «الجمهور على أنها مكية وهو الصواب، ويدل له ما رواه الترمذي عن حاكم عن جابر قال: لما قرأ رسول الله ﷺ على أصحابه سورة الرحمن حتى فرغ قال: ما لي أراكم سكوتا؟ لجن كانوا أحسن منكم ردا، قرأت عليهم من مرة ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قالوا: ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد»⁽¹⁰⁾، تقع في الجزء السابع والعشرين، وعدد آياتها ثمان وسبعون آية «تعالج أصول العقيدة الإسلامية، وهي كالعروس بين سائر السور الكريمة»⁽¹¹⁾، ويختلف الجو العام لسورة الرحمن عن غيرها من السور، حيث زينت بنفحات الرحمانية الربانية الحاملة لظلال هادئة رصينة وهذا ما سنحاول الكشف عنه في هذه الدراسة.

ثالثا: ضروب الحكى الصوتي في السورة:

1- الحكاية المدية: ونقصد بها محاكاة المدود على اختلاف أنواعها للمعنى، ومساهمتها في إبراز جمالية النظم الإيقاعي المعنوي، وعند القيام بعملية إحصائية بسيطة لأنواع المدود نكتشف المدى التصاقبي فيما بين الصوت والمعنى، وذلك من خلال هذا الجدول:

الصوائت	عددتها	نسبة ورودها
الممدودة بالألف	207	85.18%
الممدودة بالواو	15	06.17%
الممدودة بالياء	21	08.64%

وكما هو ملاحظ فإن الصوائت الممدودة بالألف تحتل الصدارة في عدد ورودها؛ والسبب في ذلك يرجع إلى كونها المناسبة لوضعية الإعلان التي تتطلب الجهر بالصوت، فينطلق إلى مداه الأعلى، حتى يسترعي انتباه السامع، ويحمل الأذن على الإنصات إلى ما سيأتي بعد ذلك النداء خاصة في مطلع السورة حين ابتدائها بلفظ (الرحمن)، حيث أن لهذا الاستهلال مقصد نستبينه من خلال طبيعة رسم حروفه وطريقة نطقها، التي تثير بواعث الطمأنينة والشعور النفسي بالارتياح لدى المخاطب؛ حتى يلتفت إلى ما سيلقى على مسامعه، فهي لفظة توحى أصواتها بدلالات الأنس، والقرب، والحنان، وهو ما يتناسب مع الطبيعة النفسية للعباد التي تنفر من دواعي الزجر فابتدائها بلين الكلام يحملها على الإذعان.

وقد اختيرت هذه الكلمة لامتياز أصواتها بالانسيابية، وقدرتها على النفاذ في أعماق النفس الإنسانية، فإذا ما تحقق ذلك انطلق إلى بيان المراد من ذلك الإعلان، ويؤكد ذلك قول "ابن عاشور": «وافتح باسم الرحمن فكان فيه تشويق جميع السامعين إلى الخبر الذي الذي يخبر به عنه، إذا كان المشركون لا يألفون هذا الاسم (...) فهم إذا سمعوا هذه الفاتحة ترقبوا ما سيرد من الخبر عنه، والمؤمنون إذا طرق أسماعهم هذا الاسم استشفروا لما سيرد من الخبر المناسب لوصفه هذا مما هم مستشفون إليه من آثار رحمته»⁽¹²⁾.

ليتضح لنا أن السياق الذي جاءت على بنائه السورة القرآنية يتطلب ذلك القدر الكمي من المدود الألفية؛ لكونها أقدر الحروف على حمل دلالات واسعة، نألفها تارة جيئ بها في معرض التوبيخ، وأخرى لغرض التعنيف، وحتى الهداية، وفي امتداد الأصوات نوع من الانطلاقة المستمرة، تمتد لا تنتهي إلا إذا قطع الصوت بها، إشارة إلى أن لا كلام يعلو في حضرة الذات الإلهية فلا صوت يسطو إلا صوت الحق تبارك وتعالى، واستمرار إعلانه دون انقطاع جبرا لهم على الخضوع.

وإن اتساع الجرى حال النطق بالألف المدية هو إيجاء باتساع أرجاء الكون في الدنيا حتى إنه ليستوعب تلك الجماهير الغفيرة من الإنس وأضعافها من الجن، بل واتساعه يوم العرض الأكبر حين يجمع الثقلين على صعيد واحد استعداداً للامتحان بين يدي الرحمن، فضلاً عن أنها توحى أيضاً بقدرة الله غير المحدودة واللامتناهية.

تأتي بعدها الصوامت الممدودة بالياء وهي أضعف المدود وأليناها مقارنة بنظيرتها الواوية، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن تصوير حالة النعيم تقتضي رسماً خاصاً موافقاً للهيئة التي يكون عليها أصحاب الجنة من الانبساط والانشراح، فتراها منسجمة أيما انسجام مع حالة الضعف والاستكانة التي يكون عليها أصحاب الجنّتين، زيادة على ذلك فإن الوضعية التي يتخذها الفم عند النطق بهذا النوع من المدود حين رجوعه إلى الراء كأننا به يجسد لنا ابتسامة الرضا البادية على الوجوه.

وجاء العدد المحدود للصوامت الممدودة بالواو محايكاً العرض القصير لمشاهد يوم الحساب، فلما كان المقام هنا مقام رحمة بالدرجة الأولى أثر الخطاب القرآني عرض تلك الأحداث بشيء من الإيجاز، فقط لغاية واحد أن لا تحمل العزة بالإثم كلا الثقلين على الجرأة والتماذي في العصيان.

ونافلة القول أن هذا التكثيف الوارد في أصوات المد وبخاصة صوت الألف إنما وظفوا لتلك الليونة والإيقاع الذي تستسيغه الآذان، فيشد الأسماع لما لها من طرب وجمالية فنية، خاصة أنها انسجمت مع رقة الخطاب الإلهي في هذه السورة، وأثبتت بما لا يدع مجالاً للشك أن هذه الصوامت الممدودة على اختلاف نوع المد تحتزن دلالات متنوعة حملت معها كل دقائق المعنى، ومن جملة الدلالات التي تضمنتها هذه المدود، دلالة التعظيم والتبجيل للذات الإلهية؛ وذلك بفضل ما تتميز به هذه الحروف من قوة تهادي في تصويتها، وأكثر المواضع التي تجلّ فيها هذا الغرض تلك التي يكون فيها الضمير مسنداً إليه عز وجل في مثل قوله: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (24) ﴿فهذه الآية بمدودها توحى مع ضمير الغائب في (له) بملكية هذا الكون لله عز وجل.

غير أن هذه الدلالة تتغير في قوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ (33) لتغير سياق الحديث فيها، إذ نلاحظ زيادة وإكثاراً في أصوات المد، وذلك تمام التجانس مع المعنى؛ ففيها تعبير عن المبالغة في تشنيع ودم أفعال الإنس والجن، في هذه الحالة تركت الأصوات ذات المد الألفي والواوي مجتمعة معاً أثرها المضاعف في التهديد، وأشاعت في المعنى دفقا واسعا من الإيجاء، وزادت من مساحته بزيادة تلك

الأصوات ومضاعفة المد بها، كما أن في امتدادها تصويراً لامتداد القطر السماوي والأرضي، وفيها مبالغة في تعجيزهما من الفرار خارج تلك الأقطار، لنقول أن أصوات المد قد خلقت عن طريق اتحاد صوتي الفتحة والضمة الطويلتين نوعاً من تكثيف وقع التهديد، ومضاعفته على نفوسهم حيث ظهرت في مهمتها الإيقاعية.

وفي قوله: ﴿وَلَمَّا خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (46)﴾ نلاحظ هدوء حدة الإيقاع من وعيد إلى وعد، في خطاب يفيض رقة وعدوبة، زادت أصوات المد حنوا ولطفاً، وأضفت عليه مزيداً من الاسترخاء بعد طول تقريع وترهيب في إيقاع هادئ رخي، يبعث على الاسترخاء والهدوء والسكينة، تطمينا لهم، وجزاء لصنيعهم «وهل جزاء التوحيد إلا الجنة»⁽¹³⁾.

2- دلالة الشدة: إن الملاحظ على سورة الرحمن أنها جاءت مشبعة بالأصوات المشددة وقد «انقسم القدماء إزاء الصوت المشدد على قسمين: أحدهما أن الصوت المشدد يقوم مقام حرفين، ويستغرق نطقه من الوقت ما يستغرقه النطق بحرفين، وثانيهما أن الصوت المشدد أطول من الصوت الواحد، وأقصر من الصوتين، وذهب المحدثون إلى أن الصوت المشدد من ناحية الصوت عبارة عن صوت واحد طويل»⁽¹⁴⁾.

وعموماً قد بلغ عددها هنا حوالي (145) صوتاً مشدداً، وهي كمية صوتية هائلة جداً، استوجبتها السياق الخطابي حتى يجمع بين كمال المعنى وجمال المبنى، فتراها أسهمت في تدفق الدلالات، وبعث إيحائها إلى الذهن، أول ما استهل به الخطاب لفظ مشدد في بدايته في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ (1)﴾ وهي صيغة مبالغة في الرحمة، حتى قيل أنها شمول واستغراق في لطف الله وعطفه، ولذلك فإن هذا اللفظ أفصح عن رحمانية عالية فاقت كل توقعات الخلائق، جسدت حقيقتها صفة التفخيم والتكثير في الرأى التي ألفت بظلالها في نسج عظمة رحمته، وزادته حدتها فبلغت ذروة التصوير بفضل ميزة صوت الشدة الذي هو حكاية لتلك المبالغة الشديدة في رحمة الخالق بالخلق، والتي وسعت كل شيء.

كما دلت على منتهى قدرة الله وجبروته بأن كان كل شيء واقع في ظل حكمه في قوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (17)﴾ سيما بتكرار لفظ "رب"، فنرى الأثر التعظيمي للملك الإلهي جلياً إثر انبثاقه من صوت الشدة الذي أضفى عليه صوت الباء ذا الصفة الجهرية الانفجارية دلالة أوسع، في تلميح واضح إلى عجزهم عن الفرار من هذا الملكوت الكوني «هذه الإشارة التي تملأ القلب بفيض

غامر من الشعور بوجود الله حيثما توجه، وحيثما تلفت، وحيثما امتد به النظر حوله في الآفاق حيث الشروق وحيث الغروب هناك الله ربوبيته ومشيتته وسلطانه، ونوره وتوجيهه وهدايته»⁽¹⁵⁾.

وتوحي لنا أصداء الشدة بتكثيف المعنى في لفظ "الثقلان" في قوله تعالى: ﴿سَنَفِغُ لَكُمْ آيَةَ الثَّقَلَانِ (31)﴾ وفي ﴿مُدْهَامَتَانِ (64)﴾ وكذا لفظ "نضاختان" في قوله: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (66)﴾، أما الأولى فجاء رسم الكلمة فيها إلى جانب أصواتها مؤتلفاً مع معناها، إذ أوعزت لنا بثقل ذنوب الجن والإنس، وكثرتها حتى أنها كالجلبل فوق ظهورهم تقعدهم عن الوقوف، أما الثانية فقد ضاعف فيها التشديد من الوحي التخيلي فإذا بنا نحال الجنيتين شديداً الخضرة، قريبتان إلى السواد كما قال بعض المفسرين، وفي الثالثة تعبير عن قوة تدفق العينين حتى غدتا كالسيل المنهمر.

3- دلالة الحركات على المعنى: وللحركة دور بارز في توجيه الدلالة، وهي باستقلالها لا تحتاج صوتاً آخر معين لها كي تتمكن من بسط السياق الكلامي الذي أراده المولى عز وجل، قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (10)﴾ هي آية أغلب الحركات فيها فتحة - ومعلوم عن هذا الصوت أنه أخف الحركات نطقاً مقارنة بنظيرتها الضمة والكسرة - في إichاء مبین على أن الله قد خفف شرائعه على عباده، ويسر لهم طريق الحق، وأوضح لهم أسهل المسالك إلى جنة الملك، بل إن توالي تلك الحركات على طول الآية هو دليل على أن سبيل النجاح واحد وحيد، ميسر يسير، حتى يتمكن الثقلان من انتهاز الصراط الذي يكفل لهم الخروج من متاهات الظلال وهو «دليل على أن التشدد وسلوك الطريق الأصعب الذي يشق على المكلف ليس بمحمودين؛ لأن الشرع لم يقصد إلى تعذيب النفس...»⁽¹⁶⁾.

3- دلالة الهمس والجهر: حتى نتكن من دراسة معاني تلك الأصوات تبعاً للسياقات التي جاءت فيها قننا بدراسة إحصائية لعدد ونسبة ورودها على طول السورة، وهذا جدول يوضح لنا ذلك:

الصوامت المهموسة							الصوامت المجهورة								
			ك	خ	ت		ق	ط	د	ب	ء	الانفجارية			
			86	12	57		20	7	4	117	134				
هـ	ف	ص	ش	س	ح	ث	غ	ظ	ض	ز	ذ	الاحتكاكية الصفيرية			
31	63	6	8	28	11	3	4	1	5	6	41				
—							النون		الميم		الغناء الأنفية				
							134		106						
													اللام		المنحرفة
													68		
													الراء		المكررة
													83		
													الجيم		المزجي المركب
													26		
													العين		المتوسطة
													13		
													الياء		أشباه الصوامت
													65		
26.31%			305				73.68%		854		المجموع				

ومن الجدول نجد أن الأصوات المجهورة تحتل الصدارة من حيث نسبة تواترها، وفاقت المهموسة رغم كون الوصف الرحماني قد طغا عليها؛ والسبب في غلبة الأصوات ذات الوضوح السمعي العالي، والرنين القوي عائد إلى انتفاء الموسيقى الفنية للخطاب إذا ما سيطرت المهموسة عليها، ففي أي

خطاب أياً كان نوعه تكون فيه «الكثرة الغالبة للأصوات اللغوية مجهورة، ومن الطبيعي أن تكون كذلك وإلا فقدت اللغة عنصرها الموسيقي، ورينها الخاص الذي يميز به الكلام من الصمت، والجمهور من الهمس والإسرار»⁽¹⁷⁾

لصوت الهمزة والنون حضور قوي في هذه الصورة بلغ عددها حد (134) صوتاً، ويعد الأول من الأصوات المستعصية في النطق، والتي يستثقلها اللسان، ونرى في ذلك مشاكلة بينها وبين الثقل الذي تحمله الجن والإنس ... ثقل تكليف لم يكونا أهلاً له ... ثقل ذنوب أعمت بصيرتهم عن أداء واجب الشكر ... ثقل مكانتهم وقدرهم عند ربهم ... فما نالا ذلك الاسم إلا «لعظيم خطرهما، وجلال شأنهما (...) ولثقل وزنهما بالعقل والتمييز»⁽¹⁸⁾.

أما النون التي تتميز بغنتها ونغمها الشجي فقد جاءت في أغلب حالاتها لترسم ألواحاً مختلفة لثلاث صور تعاقبت على طول السورة، والتي كان لتضافرها مع صوامت الميم، والراء، واللام سبباً في مدها بتلك الطاقة الإيحائية؛ إذ أن هذه الصوامت الأربعة كثيراً ما يضعها علماء الأصوات في نطاق واحد ضمن الصوامت الساكنة الشبيهة بأصوات اللين⁽¹⁹⁾، على اعتبار أنها تحتل بطبيعتها الأكوستكية موقع القمم من حيث درجة الوضوح وقوة السمع، مقارنة مع الصوامت الأخرى التي تحتل موقع القاع، لذلك فهذه الصوامت المتوسطة (الراء، اللام، الميم، النون) تحتل المركز الثاني بعد العلل في جهرها وقوة إسماعها⁽²⁰⁾ ولنا الآن أن نعرض الصور الثلاث التي جاءت في رحاب السورة.

أما الأولى ففي قوله عز وجل: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ (21) يُخْرِجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ (22) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ (23) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (24) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ (25)﴾ ترى أن الصوامت الأربعة قد اتحدت وانسجمت مع المعنى في تصويرها لجو موادع ... عبر تكرارها عن قمة الهدوء في الحدث ... هدوء تجلت فيه القدرة الباهرة لله عز وجل، وعظيم عطائه، والفائض من النعم التي أغدقها على عباده، فكانت الرخاوة والأنغام التي اتسمت بها هذه الأصوات المتوسطة لصيقة بالحدث، والنفس على حد سواء⁽²¹⁾، دون أن ننسى أن طريقة التلفظ المعتمدة عليها في نطق الأصوات هي التي حققت لها تلك الرخاوة؛ ففي مواطن أخرى نألفها شديدة.

الصورة الثانية نجد فيها الأصوات نفسها تتكرر، وتتحد مع أصوات أخرى شديدة على غرار الباء، والقاف، والكاف في قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (27)﴾

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (28) ﴿﴾ حيث تمكنت من التعبير عن عظمة الحدث، الذي يضع صفحة الوجود في طي الفناء، مع بقاء وجه الكريم خالداً أبداً الدهر، بل وأكثر من ذلك بينت هذه الأصوات عن قدرتها في إشاعة جو من الخشوع والانكسار في النفس الإنسانية أمام قدرة جبار السموات والأرض، وأحاطتها بهالة من القدسية والإجلال لرب العباد⁽²²⁾.

وامتازت الصورة الثالثة بالفزع والتهيل والرهبنة، قال عز وجل: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ (31) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (32) يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (33)﴾ في هذه الآية «تجلت شدة الحروف المائعة وقوتها بتركيبها مع الأصوات الانفجارية والشديدة كالقاف، والطاء، والظاء، فجاءت الراء في هذا التركيب واللام والميم والنون لتعبر عن الهول الذي فاق المؤلف البشري والمصير المتردي الذي ينتظر المجرمين، وبهذا تبعث هذه الحروف في هذا الموضع إيقاعاً قوياً تستيقظ له المشاعر، وتخفق له القلوب»⁽²³⁾.

إذن هي أربعة أصوات تنتمي لمجموعة واحدة استطاعت أن تؤدي دلالات مختلفة، حيث تحكمت درجة الجهر الموجودة بتلك الأصوات في التنوع الدلالي؛ بمعنى أن للجهر مستويات بين خفيف وقوي ومتوسط، هذه المستويات هي التي استطاعت أن تحمل المعنى بكل ما فيه من طاقة تعبيرية، لولاها لعدمت القوة الإيحائية التي يصورها الصوت الواحد.

وفي قائمة الأصوات المجهورة يأتي (الباء) في مقدمة الترتيب بعد الهمزة، تليه (الذال) ف (الجيم) ثم (القاف) وهي أصوات تتميز باختلاف مخارجها، وطريقة النطق بها، وصفاتها الخاصة، لكنها تلتقي في كونها أصواتاً مجهورة، هذا الجهر يختلف من صوت لآخر فالباء والجيم أقوى من الذال؛ لأن الأخير احتكاكي صفيري رخو، في حين أن الباء والقاف انفجاريان، أما الجيم فركب، وقد جاء هذا التنوع والاختلاف متماشياً مع طبيعة الخطاب ... اختلافه وتوزعه على ثلاث محطات ... تنوع النعم التي أسبغها الله على عباده ... وكذا اختلاف وتنوع الدروب التي يسلكها الثقلان ... أما الوحدة العامة لهذه الأصوات المتمثلة في وحدة الجهر فهي دليل على وحدانية الله عز وجل ... دليل على أن لا معبود غيره وأن لا إله سواه.

والأصوات المهموسة الواردة في سورة الرحمن تحمل هي الأخرى دلالات متنوعة، وتحاكي بدورها المعنى، منها صوتي (التاء) و(الهاء) فالأول ورد في سبع وخمسين موضعاً (57) والثاني في

واحد وثلاثين موقعا(31)، فالطبيعة النطقية لصامت التاء عند خروجه، والتي تحمل اللسان على الاتصال والالتقاء بالثة هو إحياء جلي بدعوة الجن والإنس إلى القرب من الله والتسك والاعتصام بحبله، والالتقاء على طريق الحق للحاق بركب الناجين.

أما صوت الهاء الذي ترى في نطقه خروجاً سريعاً للهواء ففيه إيعاز عن حالهما وقت الهروب لاهتين ... آهاتهم متسارعة ... أنفسهم متقطع ... يحاولون النفاذ والهروب من أقطار السموات والأرض، والشهب لهم بالمرصاد قذفاً وحرقا.

خاتمة:

وبعد هذه الجولة في رحاب ورقتنا البحثية نصل إلى ختامها لنقول أن الدلالات في علوم العربية تختلف، فإذا كانت هذه الدلالة في الكتابة تحددتها علامات الترقيم، ودلالة الكلام يحددها التنغيم، فإن أحد ضوابط تحديدها في القرآن الكريم هو الصوت، إذ يقوم الخطاب القرآني على الانتقائية فيختار من الأصوات تلك التي لها القدرة على الإحياء بدلالاتها، وتجسيدها في الصورة الأرق لها، على أن النظام العام في سورة الرحمن ينهض على التخيل والتجسيم والتصوير، بشكل يجعل الصور تتكشف للقارئ المتدبر الجائل بفكره في فلك تلك المشاهد المعروضة، ومنها ينطلق الإحساس بالجمال الدفين للخطاب الإلهي؛ بفضل ما تحدثه من لذة، خاصة أن تلك الأصوات قد وظفت بطريقة محكمة جداً، وفق نسيج مترابط فتح المجال أمام الوعي لتقبل عديد التأويلات التي وإن اختلف فإنها من غير الممكن أن تتعارض مع الأجواء العامة للسورة.

كما أن للحكاية في القرآن أضرب متنوعة تتشابك فيها العناصر اللغوية مع النحوية والصرفية، وكذا البلاغية والصوتية في رسم مشاهد توحى ظلالها بارتسام المشهد ارتساماً في مخيلة المتلقي، واقتصارنا هنا على الحكاية الصوتية كان لغرض كشف بعض أشكال الحكي الصوتي التي لا تعد ولا تحصى، وللصوت الواحد أن يحمل دلالات متنوعة لا حصر لها في الخطاب الواحد إذ أن النص القرآني حمال أوجه، يظل مفتوحاً مكشوفاً على التعدد القرآني.

الهوامش:

(1) - خلدون أبو الهيجاء، فيزياء الصوت اللغوي ووضوحه السمعي، عالم الكتب الحديث، دب، 2006م، ط1، ص4.

- (2) - إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، مطبعة نهضة مصر، دب، دت، دط، ص5.
- (3) - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- (4) - محمد حسين الصغير، الصوت اللغوي في القرآن، دار المؤرخ العربي، بيروت- لبنان، 1420هـ - 2000م، ط1، ص13.
- (5) - محمد علي الخولي، معجم علم الأصوات، مطابع الفرزدق التجارية، دب، 1402هـ - 1982م، ط1، ص97.
- (6) - هادي نهر، علم الأصوات النطقي، عالم الكتب الحديث، الأردن، 1432هـ - 2011م، ط1، ص279.
- (7) - العقاد، عباس محمود، اللغة الشاعرة، نهضة مصر للنشر والطباعة والتوزيع، دب، 1995م، دط، ص8.
- (8) - محمد حسين الصغير، الصوت اللغوي في القرآن، ص71.
- (9) - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- (10) - السيوطي جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تح: مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد، السعودية، دت، ج1، دط، ص69، 70.
- (11) - الصابوني، محمد علي، صفوة التفاسير، دار جيل، بيروت، 2001م، مج3، ط1، ص277.
- (12) - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، دب، دت، مج27، دط، ص230.
- (13) - الثعالبي، عبد الرحمن، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تح: عمار الطالبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، دب، دت، ج4 دط، ص339.
- (14) - شاكر سبع الأسدي، سورة الناس دراسة صوتية دلالية، مجلة آداب ذي قار، المجلد1، العدد3، جامعة ذي قار، دب، 2011م، ص18.
- (15) - سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، 1423هـ - 2003م، ج5، ط32، ص3452.
- (16) - محي الدين الدرويش، إعراب القرآن وبيانه، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1420هـ - 1999م، ج7، ط7، ص370.
- (17) - إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص22، 23.
- (18) - محي الدين الدرويش، إعراب القرآن وبيانه، ص376.
- (19) - إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص28.
- (20) - ينظر: علاء الدين الغرايبية، سورة القمر دراسة دلالية في البنية اللغوية، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد 113، جامعة الكويت، ص67.
- (21) - ينظر: زبيدة أسباع، دلالة التكرار في سورة الرحمن، مجلة الأثر، العدد14، باتنة- الجزائر، 2012م، ص88.
- (22) - ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- (23) - المرجع نفس، ص88، 89.